المرأة في القرآن الكريم

الشيخ راشد الغنوشي

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

وليس الذكر كالأنثى:

﴿ إذ قالت امرأة عمران ربِّ إني نذرت لك ما في بطني محرَّراً فتقبَّل مني إنَّك أنت السميع العليم ، فلمَّا وضعتها قالت ربِّ إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت ، وليس الذَّكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أُعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم فتقبَّلها ربُّها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا ، كلما دخل عليها زكريا ، المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ [آل عمران: ٣٤ ـ ٣٧].

﴿ يا مريم إن الله اصطفاك وطهَّرك واصطفاك على نساء العالمين ، يا مريم أقنتي لربِّك واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ . [آل عمران: ٤١].

من مظاهر تكريم الاسلام للنساء وإعادة الاعتبار لهن ككائنات إنسانية حرّة ومسؤولة ورفع آصار وأغلال قرون الظلم الطويلة التي رزحن تحتها ، من مظاهر ذلك تنويه القرآن والحديث بمجموعة كبيرة من النماذج النسائية في مختلف الميادين التعبدية والاجتماعية والسياسية والجهادية ولعلّ أهم هذه النماذج على الاطلاق في تاريخ الملحمة الدينية النسائية مريم عليها الصلاة والسلام . فقد اصطفاها الله على نساء العالمين بإطلاق يشمل الزّمان والمكان كله . بل إنها كما قال عليه السلام : « سيدة نساء أهل الجنة » ومجّدها القرآن بهذا التكريم الإلهي الرائع ﴿ **يا مريم إن الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين** ﴾[1] وبلغت درجة من الصلاح والتعبد أن ناداها قومها ﴿ **يا أخت هارون** ﴾[2] رغم تباعد الزمن بينها وبين هارون وعدم وجود نسب غير النسب الروحي والمشابهة بين هذه الفتاة العابدة وبين النبي هارون وقد كان مضرب الأمثال في الصّلاح والعبادة عند بني اسرائيل ولقد حققت بولادتها ونشأتها معجزات توّجت بأعجب حدث في تاريخ التناسل البشري ليس له من نظير غير قصّة الخلق الأولى ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثمّ قال له كن فيكون** ﴾[3] .

كانت بشارة مريم بحملها عيسى عليهما السلام وهي العابدة الطاهرة البكر التي تربّت على يد نبي في محراب العبادة والتقى امتحاناً رهيباً ما كان لغير شخصيتها الفذّة إلّا أن تنوء تحته وتستحي ﴿ **يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً** ﴾[4] . وتحققت بذلك أمنية أم مريم بأكبر ما كانت تأمل فغدت ليست مجرّد أم لسادن معبد بل أماً لمرشد من أكبر مرشدي البشرية لقد كانت ولادتها مفاجأة كبرى لأمّها مفاجأة « غير سارّة » لا لكونها بنتاً بل لأن تلك الأم الصالحة التي يبدو أن العمر قد تقدّم بها دون أن تنجب فأنذرت إن هي ولدت ولداً تهبه محرّراً لخدمة المعبد لا يشغله عن ذلك شاغل من شواغل الدنيا وقد استقر في خلدها أن تلد ولداً ذكراً ولعلّها بشرت بذلك فلمّا كان المولود أنثى أبدت شديد الأسف والحسرة والأسى على ما فاتها من الوفاء بنذرها ﴿ **فلمّا وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت ليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم** ﴾ .

ولقد انتزع البعض هذه الكلمات من اطارها فأخذ كثير من المفكرين قوله تعالى ﴿ **وليس**

الذكر كالأنثى ﴾ فتكلّفوا في توجيه تقديم الذكر على الأنثى[٥] بينما وردت هذه الكلمة في سياق تكريم الأنثى ودعوة امرأة عمران الى نبذ الهواجس وضروب الأسى التي ملأت قلبها وهي تفجع في الأمل الذي تعلّقت به طويلاً ، أن يكون لها ولد تتنازل عن حقها فيه وتفرغه لخدمة المعبد فإذا بالأمل يتبخّر في لحظة ، فماذا عساها تجدي أنثى في وظيفة هي عادة من وظائف الرجال . . ولكنها لم تملك وقد فجعت في أملها إلاّ أن تشكو الى ربّها أساها وحسرتها ﴿ **ربِّ إني وضعتها أنثى ﴾** والله ـ قطعاً (أعلم بما وضعت) فأجيبت ﴿ **والله أعلم بما وضعتِ ﴾** « بكسر التاء » أو والله أعلم بما وضعتْ « بتسكين التاء » تعقيباً من الله على قولها لبيان أن الله يعلم قيمة وأهمية ما وضعت ـ وهي لا تعلم ذلك ـ ولو علمت لاستيقنت أن الله سيحقق عن طريق هذه الأنثى ما كانت تتمناه بأحسن وجه وأرضى طريق ، ولو كانت تعلم ما أراده لها لم تتحزن ولم تتحسّر فليس الذكر الذي طلبته بأفضل من الأنثى التي أعطتها بل هذه الأنثى خير مما كانت ترجو من الذكور .

يقول صاحب الكشاف في تفسير هذه الآية « فإن قلت : فَلِمَ قالت إني وضعتها أنثى وما أرادت إلى هذا القول (أي وما أرادت إعلام الله بذلك) ؟ قلت : قالته تحسّراً على ما رأته من خيبة رجائها وعكس تقديرها فتحزّنت إلى ربها لأنها كانت ترجو وتقدر أن تلد ولداً ذكراً ولذلك نذرته محرّراً للسدانة ولتكلمها على وجه التحسر والتحزن . قال الله تعالى ﴿ **والله أعلم بما وضعت ﴾** تعظيماً لموضعها وتجهيلاً لها بقدر ما وهب لها منه ومعناه والله أعلم بالشيء الذي وضعت وما علق به من عظائم الأمور وأن يجعله وولده آية للعالمين ، وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئاً ولذلك تحسّرت فإن قلت فما معنى قوله تعالى : ﴿ **وليس الذّكر كالأنثى ﴾** قلت : هو بيان لما في قوله : ﴿ **والله أعلم بما وضعت ﴾** من التعظيم للموضوع والرّفع منه ومعناه ليس الذّكر الذي طلبت كالأنثى التي أعطيت فمالِك تتحسرين وقد أعطيت أنثى خير من الذّكر الذي كنت تطلبين فليس لتحزنك وأسفك من سبب غير الجهل بقيمة هذا المولود وما أودع فيه من أسرار وعجائب وما سيجريه الله تعالى على يده من عجائب ومعجزات وما سيترتب عن ذلك من تغيير في الأنفس والآفاق وفي المصير البشري جملة وذلك نظير قوله تعالى : ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . . وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾** [البقرة: ٤١٥].

فما ينبغي للمؤمن وهو يسير على هدي من ربّه أن يتحسّر على شيء ﴿ **لكي لا تأسوا على ما فاتكم ﴾** [الحديد: ٢٢]. فما يفعل الله به وله في المحصّلة النهائية إلاّ ما هو أمثل له . . .

ولم تلبث هذه المناجاة من أمّ مريم لربها أن أورثها سكينة في القلب ورضى بما قدّر الله لها فبادرت إلى تسمية هذه الوليدة مريم قيل بمعنى العابدة وسألت لها الله أن يكون في رعايتها وذريتها فاستجاب لها ربها وأنشأها على يد أحد أنبيائه الكرام في محراب العبادة هو أحد أقاربها

زكريا ، بعد أن تنازع على تربيتها كبار أحبار المعبد وظهرت على يديها عجائب في الدلائل على صلاحها وتقواها ورعاية الله لها . وأفاض عليها ربها من صنوف الخيرات ما لفت نظر كافِلَها النبي زكريا ، وعجب لأمرها فسألها عن هذه الخيرات التي استفاضت من حولها فما زادت عن أن قالت (هي من عند الله) بكل خشوع وتواضع واخلاص ممَّا أغراه وقد رأى رأي العين خيرات الله ونعمه تفيض أن يتوجه الى ربه المنعم بكل هذه النعم أن ينعم عليه هو أيضاً بما هو في لهفة اليه : أن يكون له وهو الشيخ الهرم ولد يخلفه ويؤنسه حتى إذا اكتملت ايماناً وصديقيّة نادتها الملائكة تبشّرها باصطفاء الله لها على نساء العالمين من حوّاء الى آخر امرأة حتى تقدم عليها الساعة[٦] . وإن الله طهَّرها من الرجس الذي يغرق فيه قومها وبرَّأها مما سيرميها به قومها من الافتراءات لكي تتهيَّأ لتلقي أمر الله المباشر (كن) كما تلقَّاها الطين الذي جبل عليه أول انسان (آدم) .

﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ لكي تتهيأ لذلك الامتحان العسير أوحى اليها ربها بطول القيام والركوع والسجود مع المصلين في المعبد وقد كانت ملازمة لمحرابه[٧] كما أمر النبيون من قبلها ومن بعدها وهم يتهيئون لتلقي كلمات الله ﴿ يا أيها المزّمل قم الليل إلاَّ قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً إنَّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ . [المزمّل: ١ ـ ٢ ـ ٣].

وهكذا تهيَّأت لذلك الحدث العظيم لحمل عيسى (كلمة الله وروحه) وتهيأت بايمانها وقوة شخصيتها لمجابهة مجتمع كامل يرميها وهي الطَّاهرة المطهرة في أعز ما تملكه أنثى في طهارتها وشرفها .

ولكنها تصبر وتدأب على رعاية ابنها وتربيته وإعداده للأمر العظيم الذي ينهض به في استنقاذ قومه من وحلهم وسقوطهم وإنَّ الاقتران المتواصل في القرآن بين المسيح وأمه مريم ليست دلالته الوحيدة سلبية أي نفي العقائد المنحرفة في عيسى من أنه ابن الله بل له دلالة ايجابية هي تكريم مريم عليها السلام بل تكريم كل امرأة من خلالها تكريماً بما لم تكن النساء يحصلن عليه من شرف خدمة المعبد فقد كانت مهمة خاصة بالرجال[٨] . وكأن النساء رجس لا يحق لهنَّ الاقتراب من المواطن الطاهرة ـ وتكريماً بمخاطبة الملائكة وتلقي الوحي عن الله فكانت أشهر نبية من جنس النساء وتكريماً بتلقي كلمة الخلق المباشر (كن) تلك الكلمة التي خلق بها آدم في أول قصَّة الخلق فكان خلق عيسى في رحم أمه بنفس الكلمة ، بنفس الطريقة وتكريماً بعد كلِّ ذلك بتكفيلها وحدها بتربية رسول من أولي العزم من الرسل وتشريفاً بنسبة عيسى اليها ونسبتها اليه حيث ينتسب غيره الى الرجال بينما دعي هو إلى أمه دون أن يكون في ذلك غضاضة عليه .

نبوة مريم ونبوة النساء:

شغلت هذه المسألة أذهان كثير من العلماء

حتى جعلوا منها قضية يدور الجدل حولها بين متبنين ورافضين وكأنَّ هؤلاء الرافضين لنبوة النساء ـ رغم أنهم قلة ـ كما ذكر الامام القرطبي قد استكثروا على النساء هذه المرتبة . . وكأنَّ كل فضيلة في الرجال هي سيئة في حق النساء كما صرَّح بذلك بعضهم[٩] مع أن التساوي في النوع الانساني ذكوره وإناثه أصل لا حياد عنه إلاَّ بدليل قاطع . وجلُّ ما تعلق به نفاة النبوة عن النساء مجرد تأويلات للمتشابه من القرآن مثل قوله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلاَّ رجالاً نوحي اليهم من أهل القرى** ﴾ [يوسف : ٨].

وقوله تعالى : ﴿ **وأمه صديقة** ﴾ [المائدة : ٧٤].

يقول الفخر الرازي في تفسيره « اعلم أن مريم عليها السلام ما كانت من الأنبياء لقوله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلاَّ رجالاً** ﴾ وإذا كان كذلك فإنَّ ارسال جبريل عليه السلام اليها إمَّا أن يكون كرامة لها أو إرهاصاً لعيسى عليه السلام أو معجزة لزكريا عليه السلام ، ومن الناس من قال أنَّ ذلك كان على سبيل النفث في الروح والإلهام والإلقاء في القلب كما كان في حق موسى عليه السلام في قوله : ﴿ **وأوحينا الى أم موسى** ﴾[١٠].

أما شيخ الاسلام ابن تيمية فقد ذكر أن القاضي أبا يعلى وأبا المعالي وغيرهم أنَّه قد انعقد الاجماع على أن ليس في النساء نبيّة ، والقرآن والسنّة دلاَّ على ذلك كما في قوله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلاَّ رجالاً نوحي اليهم من أهل القرى** ﴾ . وقوله : ﴿ **ما المسيح ابن مريم إلاَّ رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة** ﴾ ذكر أن غاية ما انتهت اليه أمه الصديقية[١١].

وما تمسك به نفاة النبوة عن النساء لا ينهض حجَّة مقنعة في اثبات ما ذهبوا اليه .

فقد ذهب أكثر من مفسر الى أن « رجالاً » في قوله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا قبلك إلاَّ رجالاً** ﴾ لا تدل على الجنس « الذكور » وإنما تدل على النوع الانساني .

يقول صاحب التحرير والتنوير في تفسير هذه الآية ، والرجال اسم جنسين جامد لا مفهوم له وأطلق هنا مراداً به أناساً كقوله (ص) : « ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » أي انسان أو شخص وليس المراد به الاحتراز عن المرأة وليس تشخيص الرجال وأنهم من أهل القرى لقصد الاحتراز عن النساء ومن أهل البادية ولكنه لبيان المماثلة بين من سلموا برسالتهم وبين محمد (ص) حين قالوا : ﴿ **فليأتنا بآية كما أرسل الأولون** ﴾ وقالوا : ﴿ **لولا أوتي مثل ما أوتي موسى** ﴾ أي فما كان محمد (ص) بدعا من الرسل حتى تبادروا بانكار رسالته وتعرضوا عن النظر في آياته فالقصر (وما أرسلنا . . إلاَّ) إضافي أي لم يكن الرسل عليهم السلام قبلك ملائكة أو ملوكاً من ملوك المدن الكبيرة فلا دلالة في الآية على نفي ارسال رسول من أهل البادية مثل خالد بن سنان ويعقوب عليه السلام حين كان ساكناً في البدو[١٢].

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ **يا مريم إنَّ الله اصطفاك وطهَّرك واصطفاك على نساء**

العالمين ﴾ . يذهب الشيخ بن عاشور الى أن الاصطفاء الأول اصطفاء ذاتي وهو جعلها منزّهة ذكية والثاني بمعنى التفضيل على الغير ونساء العالمين نساء زمانها أو نساء سائر الأزمنة . وتكليم الملائكة والاصطفاء يدلاّن على نبوءتها والنبوءة تكون للنساء دون الرسالة[١٣] .

ويؤكد الامام القرطبي في جامعه إلى أن ظاهر القرآن والأحاديث يقتضي أن مريم أفضل من جميع نساء العالم من حوّاء الى آخر امرأة تقوم عليها الساعة فإنّ الملائكة قد بلغتها الوحي عن الله عز وجل بالتكليف والأخبار والبشارة كما بلغت سائر الأنبياء فهي إذن نبية والنبي أفضل من الولي فهي أفضل من كل النساء الأولين والآخرين مطلقاً . وقد خصّ الله مريم بما لم يؤته أحداً من النساء وكذلك أنّ روح القدس كلمها وظهر لها ونفخ في درعها ودنا منها للنفخة فليس هذا لأحد من النساء وصدقت بكلمات ربها ولم تسأل اية عندما بشرت كما سأل زكريا (ص) من الآية ولذلك سماها الله في تنزيله صديقة فقال : ﴿ وأمه صديقة ﴾ . وقال: ﴿ وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ . فشهد لها بالصديقية وشهد لها بالتصديق بكلمات البشرى وشهد لها بالقنوت وإنما بشر زكريا بغلام فلحظ الى كبر سنه وعقامة رحم امرأته فقال أني يكون لي غلام وامرأتي عاقر فسأل آية ، وبشّرت مريم بالغلام فلحظت أنها بكر ولم يمسسها بشر فقيل لها (كذلك قال ربك) فاقتصرت على ذلك وصدّقت بكلمات ربها ولم تسأل آية ممن يعلم كنه هذا الأمر.

ومن لامرأة في جميع نساء العالمين من بنات آدم مالها من هذه المناقبة . ولذلك روي أنها سبقت السابقين مع الرسل الى الجنة . جاء في الخبر عنه (ص) : « لو أقسمت لبررت لا يدخل الجنة قبل سابقي أمّتي إلاّ بضعة عشر رجلاً منهم ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى ومريم ابنة عمران » . وقد يحق على من انتحل علم الظاهر واستدلّ بالأشياء الظاهرة على الأشياء الباطنة أن يعرف قول الرسول (ص) : « أنا سيد ولد آدم » وقوله : « لواء الحمد يوم القيامة بيدي ومفاتيح الكرم بيدي وأنا أول خطيب وأنا أول شفيع » . فلم ينل هذا السؤدد في الدنيا على الرسل إلاّ لأمر عظيم في الباطن وكذلك شأن مريم لم تنل شهادة الله في التنزيل بالصديقية والتصديق بالكلمات إلاّ لمرتبة قريبة دانية ومن قال : لم تكن نبية ، قال : إن رؤيتها للملك كما رؤى جبريل عليه السلام في صفة دحية الكلبي حين سؤاله عن الايمان والاسلام ولم يكن الصحابة بذلك أنبياء والأول أظهر وعليه الأكثر ـ أي أكثر العلماء ـ والله أعلم[١٤] .

« إنّ أكمل نوع انساني الأنبياء ثم يليهم الأولياء من الصديقين والشهداء والصالحين وإذا تقرر هذا فقد قيل أن الكمال المذكور في الحديث » كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون » . يعني به النبوءة فيلزم عليه أن تكون مريم عليها السلام وآسيا نبيّتين وقد قيل ذلك والصحيح أن مريم نبية لأن الله أوحى اليها

بواسطة الملك كما أوحى الى سائر النبيين[١٥].

وأهم الأئمة الأعلام الذين تناولوا هذه المسألة بعمق وتوسع أبو محمد بن حزم في كتابه ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل ـ حيث عقد فصلاً خاصاً بعنوان « نبوة النساء » ننقل اليك أخي القارىء أهم ما جاء فيه . ولقد بدأ أبو محمد رضي الله عنه بحثه في المسألة بتعجبه من إثارة هذه المسألة في قرطبة بينما لم تشهد مدائن الاسلام الأخرى جدلاً مماثلاً يقول : « هذا فصل ما حدث التنازع العظيم فيه إلاّ عندنا بقرطبة وفي زماننا فإن طائفة ذهبت الى ابطال كون النبوة في النساء جملة وبدّعت من قال : بذلك وذهبت طائفة الى أنه قد كان في النساء نبوة وذهبت طائفة الى التوقف في ذلك .

وينطلق ابن حزم في حسم النزاع من تحليل معنى النبوة وهي مأخوذة من الأنباء وهو الإعلام فمن أعلمه الله عز وجل بما يكون قبل أن يكون أو أوحى اليه منبّئاً له بأمر ما فهو نبي بلا شك وليس هذا من باب الإلهام الذي هو طبيعة لقوله تعالى : ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل . .** ﴾ بل الوحي الذي هو النبوة (قصد) من الله تعالى الى إعلام من يوحى اليه . . علماً ضرورياً إمّا بمجيء الملك اليه وإمّا بخطاب يخاطب به في نفسه دون وساطة فإن انكروا أن يكون هذا هو معنى النبوة فليعرفونا معناها فإنّهم لا يأتون بشيء أصلاً فإن كان ذلك كذلك فقد جاء القرآن بأنّ الله عزّ وجل أرسل ملائكة الى نساء فأخبروهن بوحي حق من الله تعالى فبشروا أم اسحاق باسحاق ﴿ **وامرأته قائمة فضحكت فبشّرناها باسحاق** ﴾ ومن وراء اسحاق يعقوب ﴿ **قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب قالوا : أتتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت** ﴾ ولا يمكن أن يكون هذا الخطاب من ملك لغير نبي بوجه من الوجوه ووجدناه تعالى قد أرسل جبريل الى مريم أم عيسى عليهما السلام وقال لها : ﴿ **إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً** ﴾ .

فهذه نبوة صحيحة بوحي صحيح ورسالة من الله تعالى اليها ووجدنا أم موسى عليها الصلاة والسلام قد أوحى الله اليها بالقاء ولدها في اليم فصحّ يقيننا أن الوحي الذي ورد لها في القاء ولدها في اليم كالوحي الوارد على ابراهيم في الرؤيا في ذبح ولده . فصحّت نبوتهنّ بيقين . وقد ذكر من الأنبياء عليهم السلام في سورة كهيعص ذكر مريم في جملتهم ثمّ قال عز وجل : ﴿ **أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممّن حملنا مع نوح** ﴾ .

وهذا هو عموم لما معهم لا يجوز تخصيصها من جملتهم وليس قوله تعالى وأمه صديقة بمانع من أن تكون نبية فقد قال تعالى : ﴿ **يوسف أيها الصدّيق** ﴾ وهو مع ذلك نبي رسول . وهذا ظاهر وبالله التوفيق . ويلحق بهنّ عليهنّ السلام في ذلك امرأة فرعون . يقول رسول الله (ص) : « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلاّ مريم بنت عمران وآسيا بنت مزاحم امرأة فرعون » والكمال في الرجال لا يكون إلاّ لبعض المرسلين لأنّ من دونهم ناقص عنهم بلا شك

وكان تخصيصه (ص) مريم وامرأة فرعون تفضيلاً لهما على سائر من أوتين النبوة من النساء بلا شك[16].

وبعد . . .

وماذا يستفيد المسلم اليوم من اعادة طرح قضية نبوة المرأة وقد تم ختم النبوة بظهور النبي الخاتم محمد (ص). أليس الخوض في هذه المسألة جملة ضرباً من الجدل المبدّد للطاقة ؟ أليس ذلك هو السبب من وراء انصراف الاسلاميين المعاصرين عن هذا البحث ؟ ان الأمر قد يبدو لبادىء الرأي كذلك وما هو كذلك فإنَّ أمة مثل أمتنا لا يزال التراث (انتاج الماضي) يمثل احدى المؤثرات الفعالة في واقعها بعيد جداً أن يحدث فيها أي تحول ثوري دون تمحيص جاد لذلك التراث. يمتحن مفاهيمه ليدعم منها ما كان تعبيراً عن الحقيقة الاسلامية المطلقة ويوظفه في عملية التحول الثوري ويوهن ويسفه ما كان ثمرة لقصور عصر من العصور وتخلفه وانحطاطه ولكنه في غياب النقد الجاد ظلَّ يعامل كجزء من الحقيقة الاسلامية المطلقة في قدسيتها وأحقيتها في توجيه العقول والمشاعر والأذواق والمسالك والتنظيمات . . وإنَّ من أهم المواضيع التي لا زال الاسلاميون يتعاملون معها من خلال الخلط بين الحقيقة الاسلامية والحقيقة التراثية : موضوع المرأة فيتعرَّفون على الموقف الاسلامي في هذه القضية وغيرها بالرجوع الى كتب التفسير والفقه آخذين محتوياتها وكأنها ناطق رسمي باسم الحقيقة الاسلامية المطلقة فيتحول التراث من كونه عامل تثوير للواقع في اتجاه الاسلام الى معوق أساسي دون عملية التحول تلك وتذهب جهود الدعاة أو كثيراً منها هدراً . بل يتحول عملهم الى عامل استمرار للماضي في الحاضر ودعم لهذا الحاضر الذي نتألم من استمراره ونطمع الى تغييره ويأخذنا الوجوم والاندهاش من صلابته وتأبيه عن كل تحول.

(١) ذكره القرطبي في جامعه: ٤ ص ٨٤.
(٢) مريم: ٢٧.
(٣) آل عمران: ٥١.
(٤) مريم: ٢٢.
(٥) الميزان في تفسير القرآن ص ١٧٢.
(٦) تفسير المنار ص ٣٠٠ مجلد ٣.
(٧) الجامع لأحكام القرآن ص ٨٣ المجلد ٢.
(٨) كان للنساء مساهمة في تنظيف المسجد في عهد الرسول عليه السلام.
(٩) نسب بعضهم الى الامام علي قوله شر خصال الرجال خير خصال النساء.
(١٠) التفسير الكبير للفخر الرازي ص ٤٣ ج ٧ طبعة طهران.
(١١) مجموع فتاوي شيخ الاسلام أحمد بن تيمية مجلد ٤ ص ٣٩٦ مطابع الرياض.
(١٢) تفسير التحرير والتنوير : سماحة الأستاذ الامام الشيخ م. طاهر بن عاشور ، ص ٦٨ ج ١٣ ، الدار التونسية للنشر.
(١٣) تفسير التحرير والتنوير : سماحة الأستاذ الامام الشيخ م. طاهر بن عاشور ص ٢٤٤ ، ج ٣، الدار التونسية للنشر.
(١٤) الجامع لأحكام القرآن ص ٨٣ ـ ٨٤، ج ٤.
(١٥) الجامع لأحكام القرآن
(١٦) الفصل في الملل والأهواء والنحل مجلد ٣ دار المعرفة بيروت ـ لبنان ص ١٧ ـ ١٨ ـ ١٩. ابن حزم.

الخلاصة :

إنَّ ما انتهينا إليه من تأملات حول النصوص الواردة في هذه القضية وما دار حولها من جدل يتلخص في :

ـ إنَّ الجملة المختصرة ـ وليس الذكر كالأنثى ـ لا علاقة لها البتة بالمعنى الذي حملت عليه تعسّفاً من تفضيل الذكر على الأنثى فهي لا تخرج في السياق الذي وردت فيه عن الدلالة على احدى المعنيين التاليين :

أ ـ **الاختصاص** : فليس يصلح أحد الجنسين لكل ما يصلح له الآخر. فقد يكون أحدهما مؤهلاً لوظائف لم يؤهل لها الآخر. مما يندرج ضمن قاعدة تقسيم العمل في مرحلة من مراحل تطور المجتمع .

ب ـ **التسرية** : على امرأة عمران وإذهاب ما داخلها من غم بولادة أنثى وقد أنذرت وليدها لمهمة دينية كانت العادة تقتضي أن يكون ذكراً فجاء التصحيح الإلهي لتلك المعتقدات الاجتماعية البالية من خلال توجيه الخطاب الإلهي الى تلك الأم الأسيفة ما كان لك أن تأسي وتحزني فقد أنعم الله عليك بخير مما كنت تأملين وتتمنين . معيداً الاعتبار لا لهذه المولودة فحسب بل للأنثى كل أنثى من خلال ذلك .

ـ إن الثورة التي فجرها الاسلام والجهاد المرير الذي خاضه من اجل اعادة الاعتبار الانساني في العدل والحرية والمساواة للمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ممن سحقتهم مجتمعات الإقطاع والاستبداد والتي كان لها الأثر الفعال والعميق في تاريخ حركة التحرر على جميع المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ومن ذلك حركة التحرر النسوية فقد ذهبت الثورة المضادة بكثير من رحم تلك الثورة وآثارها في الواقع وصحب ذلك ودعمه جهود تنظيرية لتكريس الحيف الاجتماعي والاستبداد السياسي والفوارق على أساس الجنس واللون والطبقة . كل ذلك باسم الاسلام . باسم القرآن والسنة واجماع العلماء . وفي هذا الاطار ثار الجدل حول كثير من القضايا همَّشت رسالة الاسلام وثورته الفكرية والاجتماعية مثل قضية نبوة المرأة رغم أنَّ اعتقاد الجميع في استحالة ظهور نبوة جديدة رجالية أو نسوية مما يؤكد الوظيفة الاجتماعية لهذا الجدل في تهميش دور المرأة من وراء التأكيد على عدم تأهُّلها الطبيعي لذلك التكريم والشرف .

وهو تأكيد لا يستند الى نص قاطع من كتاب

أو سنة مما احتاج معه المدافعون عنه إلى ادّعاء انعقاد الاجتماع على ذلك وهو ادعاء قامت الحجج قديماً وحديثاً على نفيه بل أن أكثر العلماء على خلاف كما أكّد الامام القرطبي في تفسيره. مما يجعلنا . ولئن سلّمنا نظرياً بحجية الاجماع كمصدر من مصادر تجديد الشريعة نتوقف كثيراً للتثبت من ادعاء انعقاده حقيقة في مسألة من المسائل . .

وتأكيد الامكان التاريخي لحصول التنبؤ النسائي رغم اعتقاد نفي ذلك الامكان بعد ظهور النبي الخاتم (ص) فضلاً عن كونه يمثل في ذاته نفياً لتحريف الحقيقة الاسلامية بحمل دلالات كثيرة في مجال ثورة الاسلام وأبعادها الانسانية في تحرير المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لأن أول اضطهاد ـ كما يقول غارودي ـ عرفه التاريخ هو اضطهاد النساء مما يجعل نسف الأسس التي يقوم عليها ذلك الاضطهاد خطوة ضرورية لنسف كل اضطهاد آخر.

ومن دلالات ذلك التأكيد اتجاه المرأة التي تعتقد أنه ليس في بنيتها الطبيعية ما يحول بينها وبين بلوغ درجات الكمال الانساني والتكريم الإلهي (النبوة) . اتجاهها نحو اكتشاف نفسها لا باعتبارها مجرد جسد موكّل رصيدها في معركة الحياة مما يقتضيه العكوف على التفنن في اخراجه وتشكيله بحسب متطلبات السوق الرجالي بل باعتبارها مشروعاً انسانياً يحمل امكانيات هائلة للترقي والكمال ، وهو مشروع انما يتحقق عبر النضال الدائب والجهاد الناصب والكدح المرير والدم ضد قوى الانحدار والتهابط والشر والاستبداد على المستوى النفسي والاجتماعي لتحقيق مجتمع العدل والمساواة والتحرر لتمثل أقصى ما يمكن أن تمثله من الكمالات الإلهية والأسماء الحسنى في هذه الحياة الدنيا . . إنّ مجال الترقي مفتوح أمام الجميع رجالاً ونساءً عرباً وعجماً ، مفتوح على مصراعيه بدون أي عائق من نسب أو لون لأنه لئن كانت النبوة قد تمّ بنيانها فان أرثها وهو رصيد هائل من القيم والكمالات أمانة في عنق الوارثين من الرجال والنساء. . فليس على الجميع إلاّ أن يحاولوا أن يضعوا أنفسهم في الطريق الصاعد . . زادهم اقبال جاد على الله ﴿ **يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين** ﴾ نعم يا مريم . إنها تنادى باسمها من الملأ الأعلى كما كان النبي عليه السلام يدعو نساءه وبناته ونساء المسلمين باسمائهن ـ على ملأ من الناس ـ دونما أي تحرج أو تأثم أو استخدام للاثارة ايحاءً بتخلق زائف وكأن المرأة عورة كلها حتى اسمها .

يا مريم كل زمان ومكان يا أختاه نداء الحق والسمو والجهاد والثورة من الأم الأعلى يناديك : اقنتي لربك وأقبلي عليه بالاخص تستمدين منه القوة لتحطيم أغلال القرون . . أغلال الاقطاع والاستبداد، وأغلال استغلال ورأسمال ، وأغلال أيديولوجيات التخلف والتبعية والاستعمار التي تريدك جسداً منمقاً مزخرفاً قابلاً للتشكل والاستمتاع والاستقلال كما يشاء الطغاة والرأسماليون . . فيا مريم . . يا أختيّة حذار من الوقوع في شباكهم وانضمّي

الى قافلة الايمان وكتيبة الثورة والرفض. رفض الخضوع إلاّ للحق تبارك وتعالى.. فاقنتي لربك واركعي مع الراكعين.

إن كيدهن عظيم:

الكيد في اللغة المكر والاحتيال والاجتهاد والتدبير والمعالجة وبه سميت الحرب كيداً ولقد ورد في القرآن مرّات كثيرة منسوباً الى الانسان والشيطان للرجال والنساء للصالحين والطالحين بل ورد منسوباً لله في معرض المقارنة بين كيد المخلوقات وخالقهم فليس الكيد في ذاته ذميماً بل منه ما يحمد ومنه ما يذم بحسب الوسائل المستخدمة في الاحتيال للتغلب على الصعوبات للوصول الى الهدف وبحسب نبل هذا الهدف أو وضاعته.

وفي سورة يوسف نفسها ورد الكيد منسوباً الى أخوة يوسف ﴿ **لا تقصص رؤياك على أخوتك فيكيدوا لك كيداً** ﴾ كما جاء وصفاً للتدبير الإلهي. ﴿ **كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك** ﴾ أي كذلك دبّرنا له هذا التدبير الدقيق[1]. ولقد ورد هذا التأكيد في القرآن ﴿ **إن كيدكنّ عظيم** ﴾. في سياق العرض القرآني لسلسلة الامتحانات والمحن التي عرّض الله سبحانه عبده يوسف لها ضمن خطة اعداده لمنصب القيادة السياسية والدينية في مصر فبعد محنة عداء أخوته له وكيدهم له ورميه في الجب فنجاته فوقوعه في محنة الاستعباد وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم[2]. حتى إذا بلغ أشده واستوى رجولة وأدباً فتن بافتتان سيدته به فتنة عظيمة وتوسلته بمختلف ما تحتال به مثيلاتها للوصول منه الى اطفاء نيران أشواقها ولكنه كان يصدها كل مرة بلطف وتجاهل دعواتها حتى نفد صبرها وجُرح كبرياؤها العنيد فقررت حمله على ما تريد بأي ثمن ﴿ **وغلقت الأبواب وقالت هيت لك** ﴾ وقد أحكمت غلق الأبواب وقالت قد تهيأت لك فهلمَ بادر فساورت الشاب الذي يفيض رجولة وحيوية سورة ضعف ﴿ **ولقد همّت به وهمّ بها** ﴾ ولكنه تاب سريعاً الى ربه واستعلى على نوازعه واستعصم بايمانه وعفته ﴿ **لولا أن رأى برهان ربه** ﴾ فما كان لينجو من الانزلاق في ذلك الموقع الرهيب ﴿ **لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنّه من عبادنا المخلصين** ﴾.

وما كان الله ليترك عبداً له مطيعاً وحيداً يواجه اندفاعات الجسد ومكايد الشيطان ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً** ﴾ وليس من سبيل للتخلص من ضغط مثل ذلك الظرف العصيب الذي يحيط به إلاّ النجاة بالانصراف والنأي بعيداً عن محيط الاغواء فاندفع للنجاة بنفسه ولكن السيدة المطعونة في كبريائها الأنثوي ومكانتها الاجتماعية من هذا العبد المتمرد على نوازعه وعلى وضعه الاجتماعي الذي يقتضي منه الطاعة والخدمة تعدو في حالة عصبية في أثره وتمسك بتلابيبه تجذبه من قفاه لمنعه من الخروج فتمزّق ثوبه ﴿ **واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر** ﴾ وفي هذه اللحظة يدخل الزوج سيد مصر ويفتح عينيه مشدوهاً على مشهد السيدة الوقورة في حالة عصبية تعدو في أثر فتاها ﴿ **وألفيا سيدها لدى الباب** ﴾ فتلجأ إلى الحيلة

والكيد لتبرير موقفها وتطبيعه وإخراجه مخرجاً لائقاً يجعلها في وضع المرأة الشريفة الوديعة التي تتعرَّض لعدوان عبد طالما أحسنت اليه ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلاَّ أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ ورغم أنها وضعت نفسها في وضع المعتدي عليها ولكنها لم تحدِّد نوع العدوان مما يوحي بأنَّ المسألة تتعلَّق بخلاف بسيط بين السيدة وعبدها واجهه العبد بالعنف مما يستحق معه السجن أو التأديب وفي ذلك تبرير ذكي للموقف وابعاداً لمسألة الخيانة ومحاولة اخرى للضغط على يوسف ووضعه في ظروف قاسية املاً في تليين عناده ! ولكن يوسف يكشف بوضوح عن حقيقة الموقف للدفاع عن براءته ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾ وازاء الغموض المحيط بالموقف يتدخل قريب للعائلة مستخدماً بعض القرائن ليحسن الموقف ﴿ وشهد شاهد من أهلها ان كان قميصه قدَّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وان كان قميصه قدَّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين ﴾ والمسألة ظاهرة ولكن منهاج التحقيق يقتضي الحكم لا على أساس الاقتناع الشخصي بل على أساس قرائن الواقع ويحتمل ان يكون الشاهد اكتفى بتحديد أسلوب اكتشاف الحقيقة في هذا الموقف ثم تولى السيد « العزيز » التحقيق بنفسه وإعلان النتيجة ﴿ فلما رأى قميصه قدَّ من دبر قال إنه من كيدكنَّ إن كيدكنَّ عظيم ﴾ ويلفت الحكم أو الزوج بحسب التأويل الى طرفي الحدث يوجه إلى كلٍّ منهما التوجيه المناسب لمحاصرة الحدث وعدم تهويله وكأن شيئاً لم يحدث مما هو معتاد في الأوساط المترفة حيث تفقد قيم العفَّة والشرف كل اعتبار حقيقي عدا الاعتبار المظهري تجنّباً للفضائح فيحسن بيوسف أن ينسى هذا الحدث ﴿ يوسف اعرض عن هذا ﴾ وأنت أيتها المتلبسة بفعلتك لقد أخطأت فتوبي ﴿ واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ ويسدل الستار على هذا المشهد وذلك معتاد في معالجة مثل هذه الحوادث في أوساط الوجاهة والمال[٣] . على إنَّه يمكن ملاحظة ما يلي :

١ ـ إنَّ الصلاح والتقى بل النبوة ذاتها لا تعدم في الانسان أحاسيسه ونزعاته وإنَّما تحله منها محل السيد لا العبد . وشرف الانسان وفضله ليس في إعدام احاسيسه لأنَّه بذلك يكون ملكاً لا يحمد منه سلوكاً أو يذم يقول الامام الزمخشري : « فإن قلت كيف جاز على نبي الله أن يكون منه همٌّ بالمعصية وقصد اليها قلت المراد أن نفسه مالت الى المخالطة ونازعت اليها عن شهوة الشباب وقرَّ منه ميلاً بين الهم والقصد اليه وكما تقتضيه صورة لكل الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم وهو يكسر ما به ويرد بالنظر الى برهان الله المأخوذ على المكلفين باجتناب المحارم ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمَّى همّاً لشدَّته كما كان صاحبه ممدوحاً عند الله بالامتناع كان استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظيم الابتلاء وشدَّته ولو كان همّه كهمّها عن عزيمة لما مدحه الله بأنَّه ﴿ من عباده المخلصين ﴾[٤] فليس الهم أو الميل إلى الجنس الآخر جريمة أو إثماً في حدِّ ذاته فإنما جعل هذا الميل في الانسان

لآداء وظائف رسمية على المستوى النفسي والاجتماعي فمن لم تراوده هذه الميول فما هو بالشخص السوي.

إنَّ ما يعاب على الانسان وقوعه تحت سيطرة ميوله فتورده المهالك وتدوس كلَّ قيمة وعرف.

فلماذا تستعظم كثير من المفسرين على هذا الشاب التقي مشاعره الانسانية وهمَّه بامرأة قد استكملت جمالاً ونضجاً ولكنه يجد من ايمانه وتقاه قوَّة تحجزه عن الاستجابة لما لم يأذن الله به أليس ذلك هو الهدف الأسمى للتربية الاسلامية امتلاك الانسان زمام نفسه وتحرره من الضرورة. أما إن الكيان الديني لا يتحقق إلاَّ باجتثاث تلك الميول من جذورها؟ إنها التصورات الاشراقية والنصرانية وليس شيئاً آخر وراء الحرج الذي دفع الكثير من العلماء والمفسرين الى ركوب المركب الصعب في تأويل بعض النصوص من اجل دفع شبهة النقص المتمثلة في هم يوسف وميله لامرأة العزيز مما يتصادم في تصوراتهم التي لم تتطهر جيداً في الظهور الاسلامي مع عصمة النبوة وكأن العصمة أو الكمال الانساني عندهم هو تخلص من الانسانية جملة فأين شرف المكابدة والمدافعة والابتلاء والنصر إذن؟ فضلاً عن ان يوسف لم يكن قد تنبأ آنذاك[٥].

يقول الرسول (ص) يقول الله تعالى: «إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة..»[٦] الخ. الحديث في الصحيحين.

٢ ـ ورغم أن الكيد ﴿إن كيدكن عظيم﴾ في هذه الحادثة فقد صدر من امرأة واحدة معينة فان الزوج أو الحكم الشاهد نسبه الى جنس النساء تخفيفاً من وقع الفعلة وتهويناً لها وضرباً من التبرير على اعتبار أن الاحتيال وتمويه الحقائق والاغراء والأغواء ليس خلقاً خاصاً بهذه المرأة حتى تلام عليه بل هو في كل النساء طبع وحيلة وما يلام الانسان على ما في طبيعته من خلال لأنه مقهور عليها لا يملك ازاءها رداً. ثم إنَّ المصائب إذا عمَّت قد تهون: من قبيل ما ذكرته الخنساء وهي تعزي نفسها في أخيها:

ولولا كثرة الباكين حولي
على إخوانهم لقتلت نفسي

إنها اللباقة في مواجهة الحدث الذي يثير الدم في العروق والتلطف في مجابهة السيدة بنسبة الأمر الى الجنس كله فإنه لا يسوء المرأة أن يقال لها ﴿إنَّ كيدكنَّ عظيم﴾ فهو دلالة في حسها على أنها أنثى كاملة مستوفية لمقدرة الأنثى على الكيد العظيم[٧].

فليس إذن في ما أورده القرآن حكاية للحدث على لسان الزوج أو الشاهد الحكم دليل يخرج بهذه المقالة ﴿إنَّ كيدكنَّ عظيم﴾ من كونها كما هو سياقها تبريراً وتهويناً لموقف خاص هو نورط امرأة العزيز الى اعتبار هذه المقالة حكماً إلهياً قاطعاً محدداً للطبيعة الخاصة بالنساء كل النساء في كل زمان ومكان وليس في حكاية القرآن لهذه المقالة دليل على اقرارها بقول ـ ابن المنسي الاسكندري المالكي ـ واما هذه الآية فكيد النساء فيها من قول العزيز ولكن حكاه الله تعالى عنه فيحتمل حكايته عنه أن يكون

تصحيحاً لـه ويحتمـل أن لا يكـون المـراد تصويبه[٨] . ولقـد عبَّرت كلمـة العزيـز ﴿ إنَّ كيدكن عظيم ﴾ حكماً إلهياً قـاطعاً في طبيعـة النساء واختصاصها بالاحتيال والدهاء والخبث مع أنه لا دليل على اقرار القرآن لهذه الحكاية ولم يأت في الكتاب والسنة ما يدعّم هذا التأويل ويميّز شخصية المرأة كل امرأة بالخبث والدهاء والادعاء بالباطل والإغواء فالآيات التي تتحدَّث عن الطبيعة الانسانية لا تميز بين ذكر وأنثى مثل ﴿ ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من دسَّاها ﴾ ﴿ وان ليس لـلانسـان إلاَّ مـا سعى ﴾ ﴿ وهـديناه النجـدين ﴾ الخ فـالاستعدادات للخيـر والشر تشكل خاصية للطبيعة الانسانية وظروف التربية والمجتمـع تنمي هـذا الاستعـداد وذاك يبقى للفـاعل قـدر من الحـريـة في تحميل تبعـات اعمـاله . هـذا الاعتبار اتُّخـذ سـوطـاً في يـد الكثيرين لجلد ظهور النساء بمناسبة وغير مناسبة بالتلويح الى فعل النساء وخاصة امرأة العزيز بل والتصريح احياناً بأنَّهن جميعهنَّ مثلها لا يؤمن على شيء وكمـا حملت النساء في كـل زمان تبعـات الخطيئـة الأولى حمَّلن مسؤولية امـرأة العزيز ، فغدت المرأة لا شيطاناً فحسب بل هي اشد دهاء منه حتى لقد قـال جيل من العلمـاء أيهما أشد كيداً المرأة أم الشيـطان ؟؟ فحكي بعضهم عن نفسه « أنا أخاف من النساء اكثر مما اخـاف من الشيطان !! لأن الله يقـول إن كيـد الشيطان كان ضعيفاً وقال للنساء : ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾[٩] فعقب عليه آخر « بان كيد الشيطان هنا من قول الله غير محكى وأما كيد النساء فهو من قول العزيز وايضاً فان الكيد الذي يتعاطـاه النساء وغيرهنَّ مستفاد من الشيطان ووسـوسته وتسويله »[١٠] ويؤكّد مفسراً « إنما كيد النسوان بعض كيـد الشيطان »[١١] والمقـارنة بين كيـد المرأة والشيطان بقطع النظر عن الجدل الحائر حـول أيهما أكثـر دهاءً وطيشـاً لـه دلالتـه في الكشف عن تصور محدد لطبيعة المرأة متميزة تمـاماً عن طبـائع الـرجال طبيعـة لئن لم تكن متمحضـة للشر والفسـاد والخيانـة والانحطاط والمكر فذلك هو الشأن الغالب عليها بل لقـد نسبت من غير تحقيق كاف الى بعض الأصحاب الكرام كلمات في هـذا المعنى : « المرأة شـرّ كلها وشر ما فيها إنَّـه لا بدَّ منهـا »[١٢] . وهو تصور مناف ومصادم للثورة الهائلة التي احدثها الاسلام في تحرير العرب والانسانية كـافة من عقلية الاستبداد والطغيان والسيطرة والاستعمار بمبررات جنسية أو اقتصـادية أو غيـرها ولكن الثورة المضادة ابت إلاَّ ان تثأر بالاسلام وتلبس ثوبه وتطعنه من خلف من خلال تفشيها في تراثنا في التفسيـر والفقه والأدب الفصيـح والشعبي وفي عاداتنا وتقاليدنا ولا تزال تفعل مفعولها في اخماد الثورة الاسلامية وتأصيل ثورته .

٣ ـ وعلى فرض التسليم بأنَّ كيد النساء أي تدبيرهن واحتيالهن وبراعتهن في التوصل الى اهدافهن هي أعظم من مثيلاتها لـدى الرجـال فليس ذلـك في حـد ذاتـه خسَّـة أو ثلمـة في شخصية المرأة إنَّ دلالة ذلك أن المرأة أوتيت فعالية كبيرة وحيوية عظيمة وذكاءً وقـاداً وصبراً مرابطاً وثباتاً واصراراً كبيرين في التـوصل الى

الهدف الذي تحدده لنفسها لا يصرفها عنه شيء . . ويبقى منهاج استخدام هذه الطاقة الهائلة،لكن المرأة تابعةلنمط تربيتها ولمجموعة الرؤى والتصورات التي تعمر فؤادها فيكون لها الأثر الفعّال والدور الريادي في تنوير المجتمع ودفعه في طريق التطور والبذل والفداء توصلاً الى المثل الأعلى للمجتمع وتكون مدمّرة ماحقة إذا لم يتجاوز المثل الأعلى للمجتمع مستوى النشاط الغريزي فتندفع المرأة وراء كل تافه خسيس شأن المجتمع كله ولقد ألمح بعض المفسرين بفطنة كبيرة الى هذا القانون لدى حديثه عن كيد النساء ولئن جعل الكيد خاصية كل النساء فقد خصَّ صنفاً معيناً منهنَّ وهنَّ ربّات القصور . . يقول : « ولربات القصور منهنَّ القدح المعلى من ذلك لأنهن اكثر تفرغاً له من غيرهنَّ »[13] . فلئن كان الدافع الجنسي من أعمق الدوافع في شخصية الانسان رجلاً وأنثى إلاَّ انه في حالة خلو النفس من مثل أعلى من اعتقاد مهيمن على الشخصية معبّىء لقواها للنضال من اجل تحقيقه يغدو وحشاً ضارياً وأمراً مطاعاً وقوَّة دفع جبَّارة للشخصية في طريق الانهيار والتمزق والتحلل والتهالك على الرخيص من اللذات والتافه الزائل من المتع والزينة . إنه من الطبيعي أن تقع امرأة العزيز ومثيلاتها من ربّات القصور ممن لا يفهمن من الحياة إلاَّ الاستمتاع والتهيؤ له والمنافسة عليه وتوفير اجوائه ووسائله وكأنَّ بهنَّ ظمأ لا يرتوي الى اللذة يتهالكن عليها ويتصارعن ويتآمرن دائسات في طريقهن كل عقبة من خلق ودين وعرف يملأن بذلك فراغ وجودهن ولكن أنَّى لكادحة في الريف أو في المصنع أو في قعر بيتها تمضي سحابة يومها وشطراً من ليلها في البحث عن متبلغ لها ولودها فتذوي ليورق من حولها جيل جديد وتشقى ليسعدوا وتجاهد في دفع الحياة من حولها صوب الأعلى ولا تغفل عن تثقيف فكرها والوعي بالأوضاع الاجتماعية والسياسية من حولها فلا تتردَّد في الاستجابة لداعي الدين والوطن لتناضل على جميع المستويات فهل يتصوَّر أن يكون كيد هذه الكادحة مشابهاً لتلك المترفة اللاهية !! . .

(١) المرأة في القران للعقاد ص ١٦ ـ ١٧ .
(٢) جزء من حديث الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليه السلام [اخرجه البخاري وأحمد] .
(٣) في ظلال القرآن ، ١٩٨٣ ، [ط . دار الشروق] .
(٤) الزمخشري ـ الكشاف ج ٢ ، ص ٣١١ ، (ط : طهران) .
(٥) ابن عاشور .
(٦) حديث في الصحيحين .
(٧) في ظلال القرآن ١٩٨٣ .
(٨) من كتاب « الانصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال » ، ص ٣١٥ ، ج ٢ ، ط : آنتشارات آختات طهران .
(٩) الزمخشري في الكشاف ص ٣١٥ ، ج ٢ .
(١٠) حاشية الكشاف من نفس الصفحة .
(١١) المنار ص ٢٨٨ .
(١٢) ينسب هذا الأثر للامام علي كرَّم الله وجهه .
(١٣) المنار ص ٢٨٨ ، ج ١٢ .